من ذكريات المجد !

وحى دار ابن لقمان

بقلم الأديب محمد فهمى

نحن الآن فى ٢٢ صفر سنة ٦٤٧ هجرية ، والقصر الملكى بجزيرة الروضة يموج بالأمراء والعظماء والحاشية ؛ الكل يغدون ويروحون فى ردهاته الفخمة فى قلق شديد يكاد لايستقر أحدهم فى مكان ، وصاحب الجلالة الملك الصالح نجم الدين أيوب جالس على العرش تضطرب الدماء فى شرايينه ؛ أعصابه ثائرة ، وقلبه يخفق خفقاناً شديداً . إنهم جميعاً ينتظرون النبأ الخطير : نبأ المعركة الدائرة رحاها حول أسوار دمياط . دمياط الواقفة كالسد المنيع أمام الجيوش الأوربية الصليبية وهى تتدفق كالسيل وتحاصرها بقيادة ملك فرنسا (لويس التاسع) . إنها ليست حرب المسيحية والاسلام ، وإن سموها كذلك ، وإنما هى نضال الشرق والغرب الذى لم يخمد أواره منذ أن كان هناك شرق وغرب ؛ هى الحرب بين مصر العظيمة زعيمة الشرق والاسلام ، وأوربا بأجمعها ؛ هى حرب بين الغرب الطامع والشرق المدافع !

نعم إن أول من دعا إليها هم رجال الكنيسة باسم الدين ، ولكن الدين من دمائها براء ! فلم يخضها إلا ملك طامع فى توسيع ملكه ، أو أمير يمنى نفسه بالذهب الوفير ، أو فقير يطلب المال والغنى من بلاد النفائس والكنوز . . .

وبينما القصر الملكى على تلك الحال من الاضطراب والغليان اذا بفارس قد أنهكته وعثاء السفر أشعث أغبر يلهث من الاعياء ويتصبب عرقاً يقتحم ردهات القصر وطرقاته متخذاً سمته قُدُماً نحو قاعة العرش . وطلب الاذن بالمثول بين يدى صاحب الجلالة . فدخل الحاجب يُعلن قدوم الرسول المنتظر ! انتفض الملك فى مكانه وحبس أنفاسه كأنما يتهيأ للنبأ الهائل ... دخل الفارس وألقى بالنبأ الخطير فى صوت أجش . فيه شجاعة وفيه ألم . . . مولاى ! سقطت دمياط بعد معركة تشيب لهولها الولدان ، ودفاع يشرف شهداءنا الأبطال ! سقطت دمياط ! !

كانت هذه العبارة خنجراً مسموماً نفذ إلى صميم قلب الملك . .

سقطت دمياط ! وفى عهدى أنا ؟ أبعد أن كان جدى البطل صلاح الدين يدوخ جيوشهم فى ربوع سوريا وفلسطين ، ويذيقهم مرارة الهزيمة المرة بعد المرة ، يجرؤون اليوم على الدنو من العرين الذى طالما رجفوا لذكره ؟ ! هكذا ناجى الملك نفسه فى حسرة ما بعدها حسرة . . . ثم أمر الجيش بالتجهز وسار على رأسه للقاء العدو المغير ، وعسكر فى مدينة المنصورة ، وقد اتخذها قاعدة لحركات الجيش

ولكن قلبه كان داعاً يئن فى حشرجة المذبوح من أثر الطعنة التى أصابته عند ما ألقى إليه نبأ سقوط دمياط ! ! فما هى إلا فترة حتى اشتد عليه المرض ، فحمل إلى قصره بجزيرة الروضة ؛ وهناك وبين يدى المرأة التى أحبها وأخلص لها « شجرة الدر » أم ولده وولى عهده غياث الدين توران شاه فاضت روحه إلى ربها

فى هذه اللحظة الرهيبة وقد نظرت شجرة الدر فاذا بمليك مصر وزوجها الأثير عليها مُسجى على سرير الموت بين يديها ، فتملكها الأسى على الفقيد العظيم ، ولكنها سرعان ما أفاقت على صوت يهتف فى أعماق نفسها . . . الوطن . . . الأعداء . . . ! فولىّ العهد كان فى تلك الأثناء ببلاد الشام ولم يبلغه بعد نبأ الرزء الفادح . وها هوذا العدو قد اقتحم أبواب البلاد متجهاً نحو العاصمة . فساءلت نفسها كيف يستطيع الجيش الثبات ومقاومة العدو إذا علم بموت الملك وفقدان الرأس المدبّر ؟ وهل تقاوم البلاد بغير رأس ؟ إن الوطن فى خطر فلابد من الحكمة والتبصر . . . وهنا لمعت فى خاطرها فكرة جريئة . . . لا . . . يجب ألا يعلم الجيش بموت الملك . . . ثم خرجت من الحجرة وأشاعت أن الملك مريض ويرغب ألايدخل عليه أحد ؛ وأرسلت إلى قواد الجيش وأمرائه أن الملك يأمرهم بالتأهب للقاء العدو المغير فى طريقه ، بينما طيرت النبأ إلى ولى العهد ببلاد الشام بالقدوم على جناح السرعة . . .

أخذت الجيوش الفرنسية تخوض فى أحشاء البلاد قاصدة المنصورة ، والفزع يزداد يوماً بعد يوم ، والاستعداد قائم على قدم وساق ؛ فى هذه الساعة العصيبة حضر ولى العهد توران شاه فأظلته شجرة الدر على كل شىء وتسلم زمام الملك . فجمع الملك

الشاب كل عزمه وأصدر أوامره للقواد ، وعبأ الجيوش وتأهب لليوم العظيم ... هذا هو يوم الفصل ، فاما نصر لأوربا والجيوش الصليبية يُملِّكها مصر وبيت المقدس ، بل وقلاع الشرق جميعاً ويقضى على الاسلام فى دياره قضاء مبرماً ، وإما نصر لمصر يرد هذه الموجة الهائلة ويحمى ذمار الوطن والدين . وكم كانت مصر كالصخرة الهائلة تتكسر عليها أمواج الحملات الصليبية المتتابعة !. ها هى ذى أوربا بعظمتها وجيوشها الجرارة كاملة العدة هائلة العدد (كان جيش الصليبيين حوالى تسعين ألفاً) وعلى رأسها ملك من أعظم ملوك أوربا : لويس التاسع ملك فرنسا . . .

التحم الجيشان وبدأ الصراع الهائل : التقى صراع بين عدو مغير وبين أبطال يدفعون عن حمى الدين والوطن . وقد نفث فيهم المليك الشاب من روح الشباب وعزيمته ، فاندفعوا كالليوث يفتكون بالأعداء ؛ ولما اشتد الضغط على العدو التفت حوله ليكشف مكاناً للهرب ، فما هاله إلا الماء قد حاصره من الخلف ، إذ كانت الأوامر قد صدرت بفتح جسور النيل فتدفقت مياه الفيضان من وراء الأعداء كالسيول الجارفة . . نظر العدو فاذا البحر قد حصره من الخلف والجيش الباسل قد أطبق عليه يرمى عن قلوب تشتعل حمية وحماسة للوطن والدين ، وينظر الملك لويس والحسرة تنهش قلبه فيرى أشلاء جيشه تتطاير تحت مطارق الأذرع الحديدية من جنود مصر . هاهم أولاء جنوده يتساقطون فى الميدان حوله جماعات كالفراش . ومن طلب الفرار من شفرات السيوف ابتلعه اليم . . .

وإذا بفرقة من الجيش المنتصر تتقدم نحو الملك «لويس» .. هاهم أولاء بعض الأمراء والفرسان المحيطين به يناجزونها مناجزة اليائس المستميت مدافعين عن مليكهم . ولكن ماذا تجدى شجاعة بضعة أفراد أمام جيش كله أبطال ؟ ! فما هى إلا جولة أو بضع جولات حتى كان الملك ومن بقى معه من الأمراء جميعاً فى الأسر ! ! وإذا بالجيش العرمرم قد انهار كما ينهار البناء الشامخ ! ! . . .

انجلت المعركة عن فناء العدو وقد بلغ عدد قتلاه ثلاثين ألفاً خلاف الأسرى ، وكُتبت آيات النصر بمداد غزير من الدماء . هاهو ذا الملك المعظم توران شاه يعود إلى المدينة تجلله أكاليل النصر والفخار ، ويسوق وراءه فى السلاسل والاغلال ملك فرنسا وأمراءها . الكونت دنجواى ، والكونت داراتوار ، والكونت دوبواتييه ! والكونت دوبواتييه !؟ يالروعة الذكرى التى يعيدها إلى الأذهان اسم هذا الكونت ! ! ويالسخرية القدر الذى ساقه ليشهد بعينى رأسه كيف تثأر مصر لشهداء بواتييه « بلاط الشهداء سنة ٧٣٢ م » بعد خمسة قرون فى معركة تكسو فرنسا عاراً يطغى على بريق بواتييه ويسجل فى تاريخ فرنسا بل فى تاريخ أوربا كلها جبروت مصر وعظمة الشرق . . .

خيم الليل على دار ابن لقمان فى مدينة المنصورة حيث أودع الملك الأسير وأمراء بلاده ؛ وكان ليلاً رهيباً . وفى جوف الليل تذكر الملك الأسير بلاده وجيشه ومجده وآماله المحطمة والذل الذى يعانيه ، فانحدرت الدموع غزيرة من عينيه . فخاطبه أحد أمرائه الذين يشاركونه الأسر قائلاً : (لقد نصحتك يا مولاى وقلت لك إن مصر عرين الشرق ، وإن روح صلاح الدين العظيم لا زالت تغذى أشبالها ، فأبيت إلا محاولة ما أعجز قبلك امبراطور ألمانيا وريكاردوس قلب الأسد) ! ؟ وهنا جاجل فى حنايا القاعة صوت الحارس الطواشى «صبيح» الذى وُكل إليه حراسة الملك الأسير ، قائلاً : (نعم ، صدقت أيها الأمير ! ان أشبال الحمى وأبطال الوطن لتعد هذه الخاتمة لكل من رام مرام هذا الملك الأسير)

* * *

إن دار ابن لقمان لا تزال قائمة تنتظر الجيل الذى يعيد إليها حياة أبطالها . وإن من السواح الأوربيين والفرنسيين على الأخص من يقصدون هذه الدار ليشهدوا بأعينهم ويسمعوا بآذانهم عظة من أبلغ العظات ودرساً من أقسى الدروس تلقنهم اياه مصر ؛ وإن الفرنسى الذى يتيه عجباً وخيلاء فى رحاب دمشق وربوع ميسلون[1] ليحنى الرأس إذلالاً أمام دار ابن لقمان . ولكن كيف يحتفظ المصريون بهذا الهيكل من هياكل المجد والفخار ! إنهم وياللعار قد أهملوه شر إهمال وتركوه نهب البلى والاقذار . وهاهى ذى أحجاره وجدرانه تصارع البلى فى أنفة وكبرياء ! فأية كرامة لأمة لا ترعى هياكل المجد !؟ وكأنى بزوار الدار من الأوربيين يقولون فى أنفسهم وقد نظروا إلى حالتها المزرية هذه : (لو كانت لنا هذه

(١) الموقعة التى هزم فيها الجيش الفرنسى جيوش الملك فيصل واستولى بعدها على سوريا عقب الحرب الكبرى

الدار لجعلناها كعبة يحج اليها الشباب والفتيان ليستمعوا أبلغ أناشيد المجد والبطولة ترددها جوانب هذه الدار ، ولجعلنا منها رمزاً خالداً على الدهر ، نمجد فى رحابه أرواح أسلافنا الأبطال وهى ترفرف محوّمة بين جدرانه ! ولكنها ويا للأسف المرير لشعب لا يرعى مجد آبائه !!)

إيه أيتها الدار ! ! لقد خط المجد على جدرانك أروع آيات البطولة ؛ وفى رحابك سجن ملك من أعظم ملوك أوربا حاول اقتحام الوطن بجيشه العرمرم فتاقفته سيوف الأبطال والأشبال ، فاذا الجيش أشلاء تتطاير على شفرات السيوف وأسنة الرماح ، وإذا بالملك العظيم . . سجين جدرانك . . !!

ألا خبرينا أيتها الدار ، كيف شهدت أوربا المتجبرة العاتية التى خرجت بجيوشها الجرارة لأذلال مصر ؟ كيف شهدتها تذرف دموع الحسرة والتفجع ، وأنات الأسى والحزن ، وهى ترسف فى قيود الأسر وذل الهزيمة . فى شخص « لويس التاسع » ملك فرنسا . . ! !

ألا تكلمى أيتها الدار ، فكلمة منك توقظ الأسماع وتهز القلوب . لأنك تتحدثين بلسان من قد رأى وقد سمع ! !

ألا تكلمى ، فكلمة منك تقشع عنا كب النسيان والجهل التى خيمت على صفحات المجد والبطولة من سفر تاريخنا الحافل ! . . .

أيها المصريون ! ألا إن بقاء هذه الدار بحالتها الحاضرة الزرية لطعنة فى صميم الكرامة المصرية والوطنية المصرية والشعور الحى لأمة تعرف مالها من كرامة ومجد وتاريخ . . .

(المنصورة) محمد فرهمى

علمنا أن هناك مشروعاً لشق شارع حول دار ابن لقمان ، ولكنا نريد عناية خاصة بهذه الدار تتفق وجلال ذكراها

أعداد الرسالة الممتازة

إدارة نشر وترويج الصحف العربية بشارع محمد على بالقاهرة لصاحبها محمد مصطفى الفقيه تعلن جمهور (الرسالة) بأن لديها كمية محدودة من الأعداد الممتازة رقم ٤٢ و ٩٣ و ١٤٦ ، ترسل إلى من يطلبها بسعر ثلاثين مليما للعدد الواحد خالصاً أجرة البريد فى مصر والسودان وأربعين مليما فى البلاد الأخرى

بناء العلم

للسير جيمس جينز

ترجمة ابراهيم البرلسى

إذا ما تجمع لدى الباحثين قدر مناسب من الحقائق فى ناحية من النواحى العلمية ، فالخطوة التالية تكون محاولة إيجاد قاعدة عامة تربط هذه الحقائق جميعها ؛ وقد تتفق هذه القاعدة أو لا تتفق مع الاعتبارات المقررة . ولا يكفى أن تفسر هذه القاعدة الحقائق المعروفة ، بل لا بد أن تتفق مع كل ما يكشف منها ؛ فعى على ذلك لا تكون إلا بمثابة افتراض ؛ ويبدأ العالم بأن يقول : « إن التجارب أثبتت هذه الحقائق ، وأرى أن افتراضاً معيناً يتفق معها جميعها » ثم يستمر هو وأمثاله فى العمل للحصول على بيانات أدق وأوفى مرتبطة بالحقائق الأولى ؛ وكثيراً ما يؤدى ذلك إلى الوصول إلى حقائق جديدة . ويمتحن الافتراض الأول بمطابقته للمعلومات الجديدة

أما إذا وجد افتراضان متناقضان ، فقد يكون ممكناً أن نتبين الصحيح منهما ؛ فاذا أمكننا مثلاً أن نبين أن ظاهرة « س » تحدث إذا كان الفرض الأول صحيحاً ، ولا تحدث إذا كان الفرض الثانى صحيحاً ، فبأجراء تجربة لمشاهدة الظاهرة « س » يثبت أحد الافتراضين

هذه التجربة كغيرها : هى فى الواقع توجيه سؤال للطبيعة وهو : « هل يستقيم الفرض الأول ؟ . . » وهى تجيب بأن ترينا إما ظاهرة مناقضة للفرض أو متفقة معه ؛ ولكنها لا تستطيع مطلقاً أن ترينا ظاهرة تثبت صحة هذا الفرض ، لأن ظاهرة واحدة تكفى لهدم فرض معيناً بينما لا تكفى ملايين الظواهر لأثباته . ولهذا السبب لا يستطيع العالم أن يجزم بمعرفته أى شىء على وجه التأكيد ؛ اللهم إلا الحقائق المباشرة للمشاهدات . وإذا تعدى هذا فلا يستطيع التقدم إلا بافتراضات متعاقبة تحظى الواحدة منها باتفاقها مع حقائق أكثر من سابقتها وتتخلى كل منها لمن تتبعها ؛ وفى الواقع لن يأتى وقت الانتقال من الافتراضات إلى التأكيدات